Sacred and Profaned in Nizar Qabbani's Poetry

Asst. Prof. Yasser Ammar Mahdi (PhD)
Diyala University - College of Education for Human Sciences
Department of Arabic language
Yasir.ar.hum@uodiyala.edu.iq

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i147.3995

Abstract

When addressing objectively the dialectic of the sacred and profaned in Nizar Qabbani's poetry, it becomes clear that the poet's tendency is to have a dialectic of the sacred and the profaned in a different way to the concept of these two terms compared to the rest of the poets and the change in the concept of beauty and aesthetic between the poet Nizar Qabbani and the rest of other poets who have tried to imitate him. It is a crude tradition that does not reach the spirit of Nizar the poet, who is soaring in the gardens of Arabic poetry, which makes him a prominent icon referred to in stigmatization because of the depth of his experience and his breaking of the familiar that other poets are not accustomed to in terms of dealing with the relationship between men and women as they are the secret of life and its continuity. Nizar Qabbani has entered the world of women, a fantasy or a lived reality, while the other poets are mere followers of him in his poetic approach and behavior, and this is what makes him a poetic phenomenon referred to as illusion.

Keywords: the sacred, the profane, the self.

المُقدَّس والمُدنَّس في شعر نزار قباني

أ.م.د ياسر عمار مهدي
جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الانسانية/قسم اللغة العربية
Yasir.ar.hum@uodiyala.edu.iq

(مُلَخَّصُ البَحث)

عند التطرق بشكل موضوعي إلى جدليّة المقدّس والمدنّس في شعر نزار قباني، يتبيّن لنا بشكل جليّ ميل الشاعر إلى وجود جدلية المقدّس والمدنّس بشكل مغاير إلى مفهوم هذين المصطلحين قياساً إلى بقية الشعراء وتغير مفهوم الجمال والجمالية بين الشاعر نزار قباني وبقية الشعراء الآخرين الذين حاولوا أن يقلدوه وينحو نحوه بشكل تباعي، إلاّ أنه تقليد فج لا يصل إلى روح نزار الشاعر المحلقة في رياض الشعر العربي والذي جعله أيقونة بارزة يشار إليها بالبنان لعمق تجربته وكسره للمألوف الذي لم يعتد عليه الشعراء الآخرون من ناحية تناول العلاقة بين الرجل والمرأة بوصفهما سرّ الحياة وديمومتها، إذ استطاع الشاعر نزار قباني ولوج عالم المرأة خيالاً أم واقعاً معاشاً ذا منحى سياسي راح يضرب في عواطفه

المسكوته، بينما كان الشعراء الآخرون مجرّد أتباع له في نهجه وسلوكه الشعري، وهذا ما جعله ظاهرة شعرية يشار إليها بالبنان.

الكلمات المفتاحية: المُقدّس، المُدنّس، الذات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عند اختيار عنوان البحث (المُقدَّس والمُدنَّس في شعر نزار قباني) لم يكن في خاطري أنّي سأواجه هذا الكم الهائل من قصائد الشاعر التي التزم فيها بقضية المرأة في ظل أنظمة دكتاتورية أذاقت الشعب العربي شرها، وعنفها، وتصديها للشعراء الذين التزموا حق الدفاع عن الإنسان العربي المظلوم من دون تمييز بين المرأة والرجل، إذ سخَّروا إمكانياتهم المادية ووسائل الإعلام في ممارسات تعسفية كان للمرأة حظها الأوفر في سجن المرأة داخل البيوت والأزقة فضلاً عن حرمانها من ممارسة حقها المشروع والإنساني الذي كفلته لها دساتيرها التي عفا عليها الدهر، وملته وقذفت به الشعوب الحرة إلى أعماق بحر زاخر بنظرات متخلفة، لا تواكب عصر الحرية وسيادة القانون، بعيداً عن العنف الذي مورس بشكل قاسٍ ضد المرأة وحرمانها من حقوقها المشروعة في ممارسة دورها الريادي في إدارة دفة المجتمع ورسوه في ضفة الأمان، وكان الشاعر نزار قباني أحد حاملي راية الدفاع عن المرأة والمطالبة بكسر القيود وجعلها تأخذ دورها التاريخي المميز؛ لكونها تمثل نصف المجتمع وركيزة من ركائزه الأساسية، وهكذا وجدت القيام بقراءة دواوين الشاعر القباني قراءةً متمعنة محاولاً ولوج عالم النص الشعري، وهو عمل شاق يستلزم قراءة النص الشعري وما في النص من قداسة تفيض محبة وإعجابا بالمرأة لكونها تشكل في النص مرتكزاً لا ينافسها فيه الرجل ، وهي مهمة شاقة تستلزم وقتاً وصفاء ذهن ، فضلاً عن دراسة الشاعر من خلال سيرة حياته دراسة عميقة بمنظار نقدي لا ينحاز لمؤيديه ومعارضيه، فكل واحد منهما يمتلك حكماً نقدياً، والنظر بحيادية مطلقة لا تنحاز إلى هذا الجانب والجانب الآخر.

لقد وجدت نفسي أمام كمٍّ كبير من النصوص الشعرية التي كتبها الشاعر طوال سني عمره، ويتطلب هذا جهداً كبيراً لكي نرافق الشاعر في غزواته التي كان أساسها المرأة، وغزله الفاضح بها وفي تفاصيل دقيقة يعزف عنها بعض المتلقين الذين يخشون قراءتها من الفتيات في بيوتهن، فضلاً عن صراحته الدقيقة في وصف غزواته النسائية، ودواوين شعره زاخرة بنماذج نسائية غير محتشمة، قياساً بتقاليد المجتمع الشرقي وما يتمسك به من تقاليد وعادات يرفضها المجتمع العربي، الذي يتمسك بالعفة في الخطاب الشعري.

وما يراه الشاعر نزار قباني يراه بالضد الآخرون ، وهذا مكمن الصعوبات التي واجهتني في قراءة واختيار النصوص التي لا تخدش مشاعر وثوابت الآخرين ، فهي مسألة في غاية الأهمية بأن أسعى لأكون انتقائيًّا خصبًا في التعامل كما أسلفت في مقدمة البحث .

إنّ إصدار حكم نقدي إزاء نصوص الشاعر نزار قباني يكمن في كون النص زئبقياً لا تستطع أن تغور فيه من دون منهج نقدي يسبر أغوار النص، وغوامضه وأسراره الدفينة، فنحن إزاء نص شعري يحمّل طرائقه وأساليبه مزيداً من الغموض أحياناً .

إنّ انتزاع كوامن النص عند الشاعر نزار قباني تكمن في سلاسته وانسياب قصائده بعفوية يحسد عليها، فهو في اعترافاته أو قصته مع الشعر يكمن في العفوية والتلقائية في نظمه للشعر إذ إنَّه يمنح من عذوبة خالصة يمكن أن تكون منبعاً لشعريته.

إنّ دراسة موضوع يرتبط بالقداسة والدَّنس يحتم على الباحث الذي يتصدى لدراسة نصوص نزار قباني أن لا يأخذ موقفاً يستلهم فيه معطيات القصيدة النزارية وكشف عوالمها الشعرية وتبيان ما فيها من إضاءة شعرية للنصوص وإصدار الأحكام المتوازنة شعرياً، ونفسياً، وهذا لا يتحقق إلاّ مع أن يكون الباحث متوازناً في إطلاق الأحكام النقدية بعيداً عن التعسف في إصدار الأحكام ومحاولة كشف خبايا النص الشعري وتبيان ما فيه من إضاءات وإشارات تكون محطات مهمة في الانطلاق منها لرسم صورة نقدية تشغل الفضاء الشعري .

وقد قسّمت بحثي إلى تمهيد فوسم على محورين، الأول: مدخل لدراسة شعر نزار قباني، والثاني : المقدّس والمدنّس لغةً واصطلاحاً؛ ومبحثين، تناولت في المبحث الأول تمظهرات المقّدّس في شعر الشاعر، وما له من مميزات تميّز بها عن غيره عن طريق طرحه الشعري.

وتناولت في المبحث الثاني تمظهرات المدنّس في شعر الشاعر نزار قباني من خلال نماذج شعرية وبيان ما فيها من إبداع، أعقبته بخاتمة ذكرت فيها نتائج البحث وما توصل إليه، ثم تلته المصادر والمراجع. الشاعر نزار قباني شاعر يستحق الدراسة والتحليل؛ لأنه ذو إمكانات شعرية تشد السامع إلى الانجرار إليها؛ لما عنده من ذوق شعري أخّاذ في رفد التجارب الشعرية العربية المميزة.

إنّ الخلاف الدائر بين مؤيدي نظرية الشعر عند الشاعر نزار قباني ومعارضيه في نهجه الشعري، وفي استقصاء ميداني حول قبول المعيار الشعري للشاعر وضده يبرز للعيان تعلق المتلقين بغزل الشاعر نزار؛ فالشاعر بفيضه الشعري الخصب، وبقدرته على تمرير السياسة في الغزل وكسر القيود المتجذرة في الشعر (الذكورة، والأنوثة) و(المركز، والهامش) أضحى معبود الشباب والشابات كأنّه كما يبدو اللسان الناطق عن آراء وعواطف الشباب ذكوراً وإناثاً؛ لكونه الشاعراً متمرداً على القيم والتقاليد البالية، كما أنَّ الشاعر شذب لغة

الغزل ونفخ الروح فيها من جديد؛ إذ أعاد جماليات الغزل العربي القديم، إذ تحولت لغة الغزل بعد نزار قمة لا يرتقي لها كل من أخذته العزة في التقليد وجلّ من قلده من الشعراء كانوا يُنعتون بشكل فج بل مشوّه لا يفهم منه غير الوصف الذي يفتقر إلى البراعة والإبداع الذي لا يصل إلى ما وصل إليه الشاعر.

لقد أصبح الشاعر نزار قباني ظاهرة شعرية أدلى الكثير من النقاد دلوهم في تجربته الثرّة التي أغاظ انتشارها بعض من مثقفي الستينات الذين عدّوه شاعراً ماجناً يكتب الشعر الماجن في دائرة النساء والحب فقط مما كان أن يكتب عن النساء والوصال والعشق.

والشاعر نزار قباني قد أثار ضجّة بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧م عندما أصيبت الأمة العربية بجيوشها وأسلحتها، إذ أصيب الشعب العربي بنكبة مريرة تمسُّ كرامة الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج، جسّدها الشاعر نزار قباني في (هوامش على دفتر النكسة)، فأثارت حوله العديد من المعارك الأدبية التي أخذت عليه مأخذ – من وجهة نظرها – ((إن هزيمة العرب يوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ م حيث توقف عندها نزار ورأى فيها إنكساراً يشحذ الشاعرية بسيف التوهّج، فعبّر نزار عن مساحة الجرح القومي في صرخات متتالية وجريئة ومدوّية))(عبد الفتاح، ١٣ ،٢٠٠٩). ولم يكن الشاعر بعيداً عن مصادرة كتبه في بعض الدول العربية ومنع أشرطة الكاسيت من الاقتناء، وهذا يدلّ على صحة موقف الشاعر إزاء الهزائم التي منيت بها الأمة العربية، وعُدّ صوت الشاعر صوتاً مدوّياً في فضح أسباب الهزيمة أمام إسرائيل المعروفة بالكيان الصهيوني المغتصِب.

إنّ احتواء ظاهرة الشاعر نزار قباني لكثير من المشاهد الشعرية التي كشفت الهمّ العربي والتعبير عنه من خلال الشعر وإيقاظ الجماهير من سباتها وخنوعها أمام الحاكمين.

إنّ تجربة الشاعر عن المقدّس والمدنّس لا يمكن لوريقات أن تحيط بها وعرض كل ما فيها، بل تحتاج إلى دراسات جادة تبحث في عمقها الفني والشعري ما يفي بتجربة الشاعر ومدى قدرته على إبراز المقدّس والمنزّه في تجربته الشعرية .

التمهيد

أولاً : مدخل لدراسة شعر نزار قباني

لم ينقسم القرّاء والنقّاد والمثقفين في الحكم على شاعر كالشاعر نزار قباني؛ إذ اختص الشاعر بالتغزل بالمرأة جسداً وروحاً حتى إنَّ الكثير من القرّاء المراهقين وغيرهم شباباً وشابات قرأوا معاً نتاج الشاعر نزار قباني ولا سيما في مدّة السبعينات، أي إنّ الشاعر ظاهريا كما يبدو للوهلة الأولى أنه دخل مخادع النساء خاصة؛ لغرض إشباع عاطفة الحب من خلال الاستماع إلى الأغاني التي رددوا أوجاعهم فيها مطربين ومطربات وأصابهم ما أصابه سهم (كيوبيد) إله الحب ولا سيما أنَّ مجتمعنا العربي مجتمع ذكوري يفتقد الولوج في

أسرار وغموض عالم الانثى، فهو يدفع رأسه أو روحه كما يقال حين يكون التحدي مركزه امرأة ، وما أكثر ما قامت حروب؛ بسبب المرأة بشكل مباشر أو غير مباشر، ويظل الشعر ميداناً رحباً للشعراء في التغزل بجمال المرأة وسحرها وفتنتها، فهي المحرّك الأساس لبلوغ الرجال قنن المجد والرفعة وإهدائها للمرأة ؛ كي يكسب المغامر – الشاعر رضاها، وفي أدبنا العربي حكايا كثيرة عن خوض الشاعر العربي غمار الحروب والمشاكل والصعاب والمتاعب في سبيل رضا المرأة المعشوقة أو الحبيبة، وقباني استعمل الشعر وسيلته لتعزيز علاقته بالمرأة وانشداده إليها في تجربته الشعرية فضلاً عن نضوج عطائه الشعري المتميز في وسط شعريّ لا يؤمن بكسر المحظور ، والتعبير عمّا يختلج في أعماقه.

إن دراسة نتاج الشاعر نزار قباني يجعلنا نلمس كوامن الإبداع الشعري بنصّه الجديد رغم طغيان موجة الشعر العمودي في مدة حياته و يفاعته، إلا انّهُ نهج نهجاً متميزاً في أوزانه الشعرية وموضوعاته الجريئة في مساس قضية المرأة والدعوة إلى حريتها بعد أن أصبحت سلعة بائرة في دوامة الواقع العربي وإحباطاته في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ؛ إذ كان الشاعر نزار قباني يغرّد خارج السرب ويختط طريقاً خاصاً به مما جعله شاعراً متفرداً له لغته الخاصة وهي لغة (السهل الممتنع).

ثانياً: المقدّس والمدنّس لغةً واصطلاحاً

وقبل الولوج في عالم الشاعر نزار قباني، و تبيان ملامح المدنس والمقدس ومفهوميهما من خلال سطور دواوينه، وتمثيلهما في شعره الذي تمت قراءته قراءة فاحصة، وتبيان دلالات ذلك ، فمعنى (الدَّنس) كما ورد في المعاجم العربية (دنَّس) والدَّنَسُ في الثياب: لَطْخُ الوسخ ونحوه حتى في الأخلاق ، والجمع أدْناس ، وقد دَنَسَ يَدْنسُ دَنَساً ، فهو دَنِسُ: توَسَّخ. وتَدنَّسَ : اتَّسَخَ ، ودَنَّسَهُ غَيرهُ تَدْنيساً : وفي حديث الإيمان : كأَنَّ ثيابهُ لم يَمَسَّها دَنَسُ؛ والدَّنَسُ : الوَسَخُ ؛ ورجلٌ دَنسُ المروءَةِ ، والاسم الدَّنَسُ . ودَنَّسَ الرجلُ عِرْضَهُ إذا فَعَلَ ما يَشِينَهُ)) (ابن منظور،٢٠٠٣،٤٢٣) .

وقد قيل (دنس الثوب) إذا أصبح قاصراً مخموصاً في دينه، ودنسه غيره أي دنس النسب عليه (البغدادي، ١٩٦٤،٢٥٣) و((القُدْس بالضم وبضمتين: الطُّهْرُ، اسم، ومصدر ... والقُدُّوس من أسماء الله تعالى، ويفتحُ: أي : الطاهِرُ، أو المبارك ...))(الفيروزابادي،(ب.ت)،٥٢٢-٥٢٣).

وأمّا ابن فارس فكان يدلّ عنده على الطهر فجاء بمعنى التنزيه أي تنزيه الله وهو القدّوس والمقدّس(الفراهيدي،(ب.ت)،٧٣) ، وقد لاحظ الأزهري بأن معنى الطهر في قوله تعالى ﴿ ونحنُ نسَبِّحُ بحمدِك ونقدِّس لك ﴾(البقرة ،٣٠) ، إذ يقول في تفسيره ((أي نُطهرُ أنفسنا لك ، وكذلك نفعلُ بمَن أطاعَك ، نقدِّسهُ أي نطهِّرهُ ، ومن هذا قيل للسّطلِ القدس؛

لأنه يتقدس منهُ أي يتطهّر))(الأزهري،(ب.ت)،٣٩٥)، وهناك رأي آخر عن معنى نقدِّس لك في الآية المباركة أي نُقدِّسكَ ونعظِّمكَ بالتقديس (الأزهري،٢٠٠١، ٣٩٥\٨).

وقد ذكر الخليل (ت ١٧٥ هـ) في كتابه (العين) بأن مفهوم المقدس يكون في (قدس) وراح في أنه تنزيه الله وهو القدوس والمقدس والمتقدس(الفراهيدي،(د.ت)،٧٣\٥)، وبذلك يتضح أن دلالة القدس اللغوية هو الطهارة والتزكية والتبريك والتنزيه .

((فالقداسة إذ تظهر في شيء من الأشياء يغدو شيئاً مغايراً لما هو عليه مع بقائه هو هو؛ لأنه يثابر على المشاركة في وسطه الكوني المحيط به ، الحجر المقدس يظلُ حجراً وفي الظاهر – ويقول أدق من وجهة النظر العادية – لا يميزهُ أي شيء عن سائر الحجارة ، ولكن الذين يكتشف لهم الحجر على أنه مقدس يرون أن واقعه يتحول على العكس إلى واقع خارق للطبيعة ، وبتعبير آخر الطبيعة بأسرها)) (أليياد،٢٠٠٩،٥٢) ، ويتمثل أيضاً إلى النظر إلى المظاهر الطبيعية الأخرى التي تعكس بدورها تلك القوى الخفية الهائلة المهيمنة على الوجود (شلحد،١٩٩٦،٦٢-٦٣) ، فالإنسان في مرجعيات المنظور المنطقي يستطيع التعرف على المقدس وذلك يتضح ويتجلى في طهور مغاير للأشياء العادية مغايرة تامة(شلحد،١٩٩٦،٥١) ، فيكون حضوره وتفرده بشكل لا غبار عليه في أنساق الثقافة الإنسانية .

وأمّا المقدّس في معناه الاصطلاحي فهو مواضعة اجتماعية – دينية – تاريخية – لغوية – ثقافية، سياسية ، لها قيمتها في مجتمع ما ، وهي قيمة المجتمع بمعنى الثقافة والدين والتاريخ فجعل منها قيمة متعالية لا يمكن المساس بها ، فالمقدّس هو المطهّر، وهو أي شيء يكون عزله ويُحاط بالكثير من أشكال التحريم الواضح والبائن لدى السامع والقارئ على حد سواء. إذن إن المقدس هو كل أمر من الأمور أو الحاجات أو المبادئ التي يجب تقديسها لأسباب مناطة في بيان غاية التقديس .

وأمّا المدنّس اصطلاحاً فهو على العكس من المقدس ، إذ ينظر إليه نظرة استعلاء ونظرة ازدراء ، فلا يدخل فيها المجال الحيوي والقيمي الحقيقي ؛ لذلك تتحاشى الناس ذلك المدنّس ، فهو يتضمن كلّ أبعاد المدنّس الدينية والاجتماعية والتاريخية وغيرها ، فالمدنس مادي أو دنيوي يكون بعيداً عن الروحانية والقضايا السامية ، وهو بذلك يتحدد في المناحي والاتجاهات.

ويبدو أن المدنّس قد ظهر واضحاً في بعض الألفاظ القرآنية ذات الصلة بمفهوم المدنس نحو (الشرك والطمث والنجس والخبث والكفر والمعصية والنفاق والخيانة) وغير هذا موجود في معصية إبليس المعروفة المتمثلة في قوله تعالى ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال

أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾(الأعراف،١٢) ، ويبدو من ذلك أن المدنس في اللغة لا يختلف عن المعنى الاصطلاحي، وقد اتضح ذلك في كتاب الله العظيم .

وفي ذلك يرى بول تيلش أن المقدس بمعنى غير المنتهك، أي: المحرم ويكون بذلك بالضد من الدنيوي (تيلش،١٠٦،٢٠٠٧) ، وهو يمثل القوة الخفية واللاشخصية: أي الخيرة والرهيبة التي تعتقد بأنها وراء كل سعادة وكل سلطان. ونستنتج مما سبق أنّ كل شعب له تاريخه وثقافته المختلفة في تقديس الأشياء وتدنيسها على وفق ما يملي عليهم طابعهم المعتقدي والبيئي وحيثياته المتنوعة بحسب الأسباب والمواقف .

المبحث الأول

تمظهرات المقدس في شعر نزار قباني

في بحثنا المتواضع هذا ، أستحضر في ذاكرتي الخلاف الذي قام ولم يقعد في الحكم على الشاعر نزار قباني ؛ إذ انقسم جمهور الشعر والمثقفين على قسمين : القسم الأول: ناصَرَ الشاعر وآزَرَهُ في طروحاته الاجتماعية على الرغم من تحفظه على بعض ما جاء في ثنايا القصائد التي نظمها الشاعر في مراحل حياته المختلفة ، والقسم الثاني : منهم من وقف ضد الشاعر نزار قباني وراح يسدد سهام حقده عليه والنّيل منه بكل الطرق الخبيثة ، وقسم آخر وقف ضد الشاعر نزار قباني وحاربه بكلّ ضراوة وبشتى الوسائل في محاولة لكسر شوكته .

فمفهوم المقدس والمدنّس ولا سيما في المجتمعات العربية التي تؤمن بالذكورية وتقف موقفاً مضاداً من تحرير المرأة العربية وخروجها للعمل والكدح لبناء لبنة أساسية في المجتمع تحقق فيه المرأة ذاتها الإنسانية، قد تمثل هذا المسعى من رجالات الفكر والشعراء الذين ناصروا حياة المرأة وعيشها في ظل قوانين تكفل حريتها الشخصية، ولا سيما في الموافقة والرفض في الزواج على الرغم من بروز الإرهاب الفكري، وعدّ جسد المرأة محمية لا يمكن لها أن تتكلم أو تعلن رفضها لكلِّ ما يمسّ وجدانها من الرجال الذين يبحثون عن ضالتهم في الظلام بعيداً عن النور والهواء النقي ، فهم (أي الرجال) يصدرون حكم الموت على المرأة – الضحية ويتركون (الغاوون) لها ينعمون بالحرية وبعيداً عن عقاب الموت الذي يشمل المرأة فقط دون الرجل ، ويبدو أن المعركة بين المتنورين الذين وقفوا مع المرأة بالضد من الجهلة وبعض الرجال الذين عدّوا حرية المرأة عدواناً على قوامة الرجل ، فراحوا يهاجمون الشاعر نزار قباني متمسكين بالمطالبة التي تريد المرأة عبدةً ذليلة ومتاعاً من أمتعة الرجل، فعند مطالعة قصيدة نزار قباني نجده يقول:

بدراهمي..
لا بالحديث الناعم
حطمت عزتك المنيعة كلّها بدراهمي
وبما حملت من النفائس والحرير الحالم
فأطعتني
وتبعتني
كالقطعة العمياء مؤمنة بكل مزاعمي
فإذا بصدرك ذلك المغرور، ضمن غنائمي
أين اعتدادك؟
أنت أطوع من يدي في خاتمي
قد كان ثغرك مرة
ربي، فأصبح خادمي
آمنت بالحسن الأجير وطأته بدراهمي
وركلته، وذللته
بدمي، بأطواق كوهم الواهم
ذهب وديباج
أحجار تشع.. فقاومي
أي المواضع منك
لم تهطل عليه غمائمي
خيرات صدرك كلها
من بعض بعض مواسمي(ديوان قصائد،(ب.ت)،٣٤٦-٣٤٧)

إن القصيدة كانت توحي في بادئ الأمر أنها تنحو منحى التدنيس لمكانه المرأة، ولا سيما أنها ارتبطت بتصاعد في حدة الخطاب المعبر عن تدني مكانة المرأة لسلطة الرجل واتباعها مقابل إرادته، وهذا ما أكده بعدة مفردات هي (الدراهم _ الغنائم)، فجعل صورة المرأة تباع وتشترى وهذا يتضح في قوله : (أنت أطوع من يدي في خاتمي)، فجاءت نصوصه منصبة تحت مرمى النسقية المضمرة لمخبوءات النص التي يتضح أنها أتت من ارتباط الفكر الجمعي مع ذهنيات الشاعر، فهو لم يكن يرمي إلى الاحتقار منها، بل على العكس من ذلك جاءت لغته أنثوية تحيط بمكان صوت المرأة المعبر عن ذلك الوجع السلطوي الطاغي، فالانتصار جاء عبر مضمر التقديس الذي يعد مناصر لمكانتها المسلوبة وتحت مرمى التهميش والتغيب، فعند النظر إلى قصائد القباني لا تنفتق الرؤية المأمولة سطحياً،

بل تحتاج إلى تنقيب وتفتيش لمقتضيات الانتصار المحكم الذي يدعو له، فتلك الصور كانت تعطي إيذانا راح به الاتجاهان (الاتجاه المعارض، والاتجاه الموافق)، فكل يستريح لأنغامه ما بين القنوع بمحدوديتها وبين كسر ذلك الخنوع والانتصار له، إذن جاءت جل قصائده تحمل رسالة هادفة لكبح الفكر القبلي الفحولي بمنهجه القامع للاتجاه المستضعف وهذا مثل طغيانا واسعا تكشف عنه دراستنا بما تتبعه من أسس ومعطيات تحليلية كاشفة عن جوانيات الفكرة المؤثرة في خطابات النص، فالصور الشعرية التي ضمتها دواوينه تنطلق من مفهوم رجعي ، متخلفة عن ركب الحضارة فهو يستورد ما تحتاجه المرأة مع بعض التحفظات في ذلك في ذلك ؛ لكونه مجتمعاً ذكورياً ليس للمرأة الحق كما ذهبوا إلى ذلك في مذهبهم الفكري من خلال الحكم على الأشياء ، وهو (أي الشاعر) يطلق صرخته إزاء المقدّس من حكام الشعوب العربية الرازخة تحت نير الذل والعبودية والتخلف فضلاً عن الجوع والحرمان والتفاوت الطبقي والذي حمل الشاعر نزار قباني بقوله :

في ليالي الشرق لمَّا ..
يبلغُ البدرُ تمامُهْ ..
يتعرَّى الشرقُ من كلَ كرامَهْ
ونضالِ ..
فالملايينُ التي تركض من غير نعالِ..
والتي تؤمنُ في أربع زوجاتٍ ..
وفي يوم القيامَهْ..
الملايين التي لا تلتقي بالخبزِ..
إلا في الخيالِ..
والتي تسكن في الليل بيوتاً من سُعالِ..
أبداً.. ما عرفتْ شكلَ الدواءْ..
تتردَّى ..
جُثثاً تحت الضياءْ.. (المحمدي،(ب.ت)،٢٦)

فالشاعر يكتب بدم قلبه ويخطه قلمه في تعرية الأنظمة العربية الفاسدة سياسيا التي استباحت خيرات الشعوب المضطهدة فنهبت كلّ ما هو غالٍ ونفيس وامتلأت كروش المسؤولين والمتنفذين ذهباً وعقارات وأموال تدرّ عليهم لكي يزدادوا ثراءً على حساب شعوبهم، فالشعب مقدس لا يمكن سرقة أمواله دون رادعٍ من ضمير؛ إذ تفشت الرشوة في القطاع الحكومي وأخذ الأثرياء يتعاملون مع الشعوب كأبقار تدرّ بدل اللبن ذهباً ، بينما تعيش غالبية الشعوب تحت خط الفقر على الرغم من غنى وثراء الوطن العربي الذين تنعموا بما

ليس لهم حق فيه ، وهكذا انقسم متلقو شعره إلى قسمين ، قسم يمتلك وسائل الإثراء من مأكل ومشرب وصرف الملايين دون وجع قلب وأنّة حزن ، والقسم الآخر يعيش عيشة الكفاف ويعاني من الفقر المدقع ، فلا سكن صحّي له يليق به في مجتمع يحفظ كرامته ويصون ماء وجهه أمام ظلم الطبقة الغنية من زعماء القوم وحاشيتهم .

ومن المقدّس الذي يحسب للشاعر نزار قباني بوصفه شاعرا ملتزما بقضية الشعب العربي بفئاته المسحوقة ، حكايته مع الرئيس جمال عبد الناصر والتزامه بأن يفتح قيح الجرح العربي متمثلاً بهزيمة حزيران ١٩٦٧ م، حتى تم حظر كتب وأغاني نزار قباني وبثها في الإذاعة المصرية ، فهو يهاجم كل مسؤول عن هزيمة حزيران، و فاجعتها الكبرى ؛ إذ يقول في إشارة صريحة لتصرف الرئيس جمال عبد الناصر وخلع الهالة التي رفعتها الجماهير لجمال عبد الناصر، وهذا التصرف كسر للمقدس وتبيان عيوبه التي برزت بعد خوض حرب خاسرة مع الكيان الصهيوني؛ إذ مزّق الشرنقة التي كان يتقوقع بها العرب وقادتهم بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة المنكرة، إذ يقول :

إن خسرنا الحرب، لا غرابة

فنحن ندخلها

بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة (الدراويش،٢٠٠٩،١٣)

بل إنَّه خاطبه خطاباً مباشراً قائلاً أو صارخاً :

يا سيدي السلطان

لقد خسرت الحرب مرتين

لأن نصف شعبنا ليس له لسان(الدراويش،٢٠٠٩،٤١)

وفي رسالة للرئيس عبد الناصر بعتاب شاعر إذ يقول له :

((لقد دخلت قصيدتي كلّ مدينة عربية وأثارت جدلاً بين المثقفين العرب إيجاباً وسلباً فلماذا أحرم من هذا الحق في مصر وحدها ، ومتى كانت مصر تغلق أبوابها في وجه الكلمة وتضيق بها)) (الدروايش ،٢٠٠٩،٤٢) . ((والشعر : نظم شاعري للواقع الملموس ، يصل بمقارباته إلى فكرة أصيلة عن الإنسان والعالم والكون))(علوش،١٩٨٥،١٢٧) ، فهل كان نزار قباني بعيداً عن الإنسان ومشاكله والعالم بآفاقه الواسعة والكون وما فيه ؟ !!

لا شكّ أنّ الشاعر وليد عصره ومجتمعه ، فهو صوته وشكواه وآماله وآلامه وإلاّ فهو مجرد لغوٍ فارغ لا نطال منه شيئا سوى المتعة الآنية ، وبعدها يطويه النسيان ولا يعبأ به باحث أو قارئ باحثاً عن المتعة والحقيقة .

((إنّ هناك طريقان يصلان بناء إلى عصور التجديد في الأدب ، وأهم الطريقين وأسهلهما هو ما يكفي عنه القول (أدب ينتج أدباً ...) أما الطريق الآخر فيقودنا إلى الآداب المعاصرة في الأمم المجاورة أو إلى روعة الشرق وجلاله))(خليل،(ب.ت)،٣٥).

إنّ شاعرنا نزار قباني سارد راقٍ ينحو إلى القصة من خلال سرد حادثة أو واقعة وهذا ما يجعل السرد ملازماً له في شعره، و((يعدّ مصطلح علم السرد أو السرديّة (Narratology) من المصطلحات التي دخلت دائرة التوظيف النقدي تحت تأثير البنيوية))(مانفريد،٢٠١١،٧) ، إذ إنّه سرد واقعي يستمد عناصر سرده من الواقع المعيش ولكن يتلاعب في الزمن السردي والأحداث المتضاربة التي استقت آلامها من مهاد الموروث الثقافي للمجتمع .

إنّ محاكاة الشاعر نزار قباني للأحداث الخارجية محاكاة عامة غرضها الرئيس يجعل هدفها الذي تسعى إليه هو تصوير الواقع على وفق ما يراه المحاكي – الشاعر أو الرسام أو النحات أو الموسيقي أو غير ذلك يبدو بصورة أحسن أو أقبح مما هو عليه أي إن الشعر تجميل للواقع وهو ما سعى إليه الشاعر نزار قباني(طه عمر،٢٠١٦،٢٩-٢٨).

وينحو الشاعر للتقديس في قسم من قصائده التي ضمتها دواوينه التي زادت عن أربعين مؤلفاً توزعت بين الشعر والنثر ، فهو مبدع في كليهما. فقد يكون مفتاح القصيدة وسيلة من وسائل التقديس للمرأة المعشوقة ، ففي قصيدة (طفلتها) يقول في إهداء القصيدة :

((بعد عشرة أعوام من الحب المستحيل، تمر بالشاعر مع طفلتها فيأخذها بين ذراعيه ليضمّ فيها صورة أمّها)) .

طالَعني درْبي بها مَرّةً
ترفُّ كالفَراشة الجامحَهْ
طفولةُ كم تبوحُ الرُبى
ومَبْسمٌ كأنَّهُ الفاتحَهْ ..
وكنتُ شيَّعتُ زَمانَ الهوى
وانْطفَأتْ زوابعٌ نابِحهْ ..
يا طيبَها .. أعزُّ أنموذجٍ
من بعدِ تلك الغربةِ الفادِحَهْ
وكيفَ هذا كانَ ؟ قد أورِثتْ
حتى رنينَ اللثغةِ الصادحهْ
حتى انثيال الشَعرِ .. حتى
الفمَ الملمُومَ .. حتى النظرة السارحهْ (الدراويش،٢٠٠٩،٦٠١)

إنّ التقديس واضح يبرز من خلال الإهداء ، إذ تبقى روح الشاعر ترِفُّ مثل الحمامة بأجنحتها البيض وهو يرفع تلك الصغيرة بين يديه ، فهو قد عشق أمها (حبيبته السابقة) ولم تنطفئ جمرة هواه ، ثم وصل إلى ذكر (الشعر _ الفم) ليعطي أيقونة عن الألم المختلج لديه، فهو يشعر أنَّ تلك المخلوقة الصغيرة تمثّل القداسة بحدّ ذاتها .

وفي قصيدة أخرى الموسومة بـ (القدس) إذ يقول :

بكيـــــــــتُ.. حتـــــــــى انتهـــــــــت الـــــــــدموعْ
صـــــــــلّيتُ.. حتـــــــــى ذابـــــــــتِ الشـــــــــموع
ركعـــــــــتُ.. حتـــــــــى ملّنـــــــــي الركـــــــــوعْ
ســـــــألت عـــــــن محمـــــــدٍ فيـــــــكِ وعـــــــن يســـــــوع
يـــــــا قُـــــــدسُ ، يـــــــا مدينـــــــة تفـــــــوحُ أنبيـــــــاءْ
يا أقصر الدروبِ بينَ الأرضِ والسماء
يـــــــا قـــــــدسُ ، يـــــــا منـــــــارةَ الشـــــــرائع
يـــــــا طفلـــــــةً جميلـــــــةً محروقـــــــةَ الأصـــــــابع
حزينـــــــةٌ عينـــــــاكِ ، يـــــــا مدينـــــــةَ البتـــــــول
يـــــــا واحـــــــةً ظليلـــــــةً مـــــــرَّ بهـــــــا الرســـــــول
حزينـــــــةٌ حجـــــــارةُ الشـــــــوارع
حزينةٌ مآذنُ الجوامع(الدراويش،٢٠٠٩،٢٥٥)

والرمز الشعري محاولة للاقتراب من عالم القصيدة وفضاءاتها وشفراتها إذ إنّ الرمزية هي واحدة من المدارس الأدبية ووسيلة الشاعر أيّاً كان في بث مرموزاته ، و من أكثر الأدباء توسلاً بالرمز في كتاباته النثرية (جبران خليل جبران) الذي ذاع صيته في عالم الشعر والنثر متوسلاً بالمعاني العميقة محاطة بهالةٍ من الضبابية والغموض الفني الممتع بعيداً عن التقعر وكثافة الغموض حد التيهان .

ولعل ظاهرة الشاعر (نزار قباني) لا تتكرر في الشعر العربي الحديث على الرغم من أنّ الأمة العربية أمةٌ شاعرة فيها آلاف الشعراء المجيدين فهو كالمتنبي والمعرّي وغيره .

لقد ولد الشاعر في الحادي والعشرين من مارس (آذار) للعام ١٩٢٣ م(المحمدي،(ب.ت) ،١٢-١٣) في يوم ربيعي زاهر يكتنفه عطر الزهور اليانعة في بلد عربي هو (سوريا)، وقد أثار نزار قباني من حوله عدة معارك أدبية مع معارضيه من الشعراء الذين وجدوا فيه الشعراء الآخرين خطراً عليهم استلزم محاربته (شحيمي،٢٠٠٩،٢٨-٢٩).

وفي قصيدته التي أهداها إلى الأمير الخرافي .. توفيق قباني :

سأخبركم عن أميري الجميل
سأخبركم عن أميري الجميل
عن الـ كان مثل المرايا نقاءً ، ومثل السنابل طولاً
ومثل النخيل
وكان صديق الخراف الصغيرة
كان صديق العصافير
كان صديق الهديل
سأخبركُم عن بنفسج عينيه
هل تعرفينَ زجاج الكنائس ؟
هل تعرفون دموع الثريات حين تسيل ..(الدراويش، ٢٠٠٩،٦٠١)

والشاعر نزار قباني فاجعته بموت شقيقه الصغير كان مفجوعاً به لا يألو أن يضيف عليه حُلّة القداسة فيصفه بـ(الأمير) وأنه كالنخيل في سموها، وهو (صديق العصافير) وصوت الهديل للحمائم.

وتتجلى جمالية العنوان في مساحته الدلالية التي يشغلها ... فجمالية العنوان تكمن في قدرته على التحفيز والتشعير الدلالي للمساحة الدلالية التي يتركها))(شرتح،٢٠١٧،٤٧) . فهو(أي الشاعر أخذ من طروحاته الشعرية ينحو نحو الشعراء القدامى وبهذا يكون قد أرفد التجربة الشعرية أوجها العميق .

المبحث الثاني

تمظهرات المدنّس في شعر نزار قباني

من المعروف أنّ نزار قباني شاعرٌ متمكنٌ في صياغة مواضيعه الشعرية بشتى أساليبها، ومن خلال بحثنا سنوردُ شواهد شعرية في المدنّس تؤشر لنا أنّ الشاعر نزار قباني كان مزدوج الموقف إذ يقابل المدنّس المقدّس في تضاد شعري، قيمي، يحار فيه الناقد الحصيف ؛ إذ إنّ من الموضوعية دراسة شعره بموضوعية بعيداً عن التعصب والسبق في إطلاق الأحكام جزافاً ودون تروي بالاعتماد على الذائقة الفردية وهو ما لا يعول عليه في ذلك .

ويتخذ (الهدر) في تاريخ الشعب العربي أشكالاً مختلفة منها استنزاف الموارد الدامية من خلال الحروب الطاحنة التي يخوضها الشعب دون النظر إلى ما تحطمه من آمال كثيرة حتى يمكن أن يقال إنّ الشعب وقودها .

وتبدو التمظهرات في المجتمع الذي يشكو أفراده الفقر والعوز؛ نتيجة قسوة الحكام الذين تسلطوا على رقاب الناس فراحوا يسومونهم سوء العذاب ((وهكذا فالاستبداد ليس مجرد حجب للديمقراطية أو منع الحقوق، بل علاقة مختلفة نوعياً تقوم على اختزال الكيان الإنساني للآخرين إلى مستوى (الرعية) التي تعني لغوياً القطيع من الأكباش أو الأغنام))(حجازي،(ب.ت)،٢٦).

والشعر في مفهومه الإنساني السبيل الوحيد كمهمة إعلامية يُحارب به كل أشكال الاستغلال الإنساني وفضح المستور منها. ((والشاعر إنسان تطورت لديه الملكة (س) بصورة طبيعية إلى درجة تزيد من تطورها لدى أكثر الناس ، فبينما يجتث أكثرنا دون رحمة مناطق برمتها من الإدراك، فتتسبب في إفقار حياتنا العقلية ، فإنَّ الشاعر يستبقي القدرة على أن يبتهج لمجرد (حقيقة) إنّ العالم يوجد هناك))(ويلسون،٢٠١٨،٥٩).

إن النظرة التي ارتسمت على وفقها المعطيات النصية في الشعر العربي إنما استوحت تلك التفصيلات الانمزاجية التي أقرت في تلك الطبيعة الخصبة مستوحياً منها الشاعر العربي عبر الظروف التي استقاها من الأرضية التي انبثق منها، وعند مطالعتنا لقصيدة الشاعر القباني التي ابتدأها بـ (رسالة من سيدة حاقدة)، يقول فيها:

إني أراها في جوار الموقد
اخذت هنالك مقعدي...
في الركن ذات المقعدي
وأراك تمنحها يدا
مثلوجة... ذات اليد
ستردد القصص التي أسمعتني
ولسوف تخبرها بما أخبرتني
وسترفع الكأس التي جرّعتني
كأس بها سممتني
حتى إذا عادت إليك
لترود موعدنا الهني
أخبرتها أن الرفاق أتوا إليك
وأضعت رونقها كما ضيّعتني(ديوان قصائد،(ب.ت)، ٣٥)

إن الشاعر راح يقدم عدة مقاطع تعد الثيمة الأولى للبنات النص، فجاءت مرتبة على أساس تعداد الضمائر ما بين (المتكلم والمخاطب والغائب)، فتشكلت الصورة على حساب المرأة، فتجد أن الشاعر راح معبرا عن صورة المرأة المقدسة التي أبانت عن دنوها على وفق

رؤيته المبنية على شدة الالتقاء بها، فجاءت صورته الأولى (أخذت هنالك مقعدي)، معبرة عن ألم الشتات الذي يكابده الشاعر من أجلها، ثم واصلت تبيان مكامن تعبيرية هدفها أراحت أذهان المتلقين، فأتت أغلب قصائد نزار تميل إلى التغني لتسفر عن إقبال السامعين ورضاهم، فكانت تعجب بالألفاظ الرمزية (أخبرتني جرّعتني ضيّعتني)، فتركها الشاعر بين يدي الناقد جاعلا منها انتصارا طليقا يهفو به الرمز من كل جانب، فسيطرت القصيدة على جميع المدركات بترددها على وفق حاسة واحدة، فنجد أن (السمع يأتي من الأخبار) (والجرعة تأتي عند فعل التسمم) (والموعد أمام الضياع)، فترك حالة من التوهم توقظ رؤية تكنيكية أناخ تحتها الشاعر لينتصر أمام محبوبته التي فعلت به ما فعلت تحت ظل الذكورة الراكزة أمام ذكرها، فهذا التحول الذي اعتاده شاعرنا قدم رؤية جديدة لتحل حالة من عدم الطمأنينة العاكسة أمام المجتمع القبلي الموروثي المسيطر، فمن هنا لم يكن جزماً للفصل التام بين المقدس والمدنس ؛ فما تمثله المقدس إنما ارتبط بالمدنس الدنيوي ، فهكذا تكونت الصفة التقابلية واضحة عبر وجود ملزم بين الصفتين ، ولكن أحدث ذلك نظاماً خاصاً على وفق تعارض بينهما(الزاهي،٢٠١١،٣٢).

وفي قصيدة للشاعر نزار قباني الموسومة (الحاكم والعصفور) :

أتجـــــــــــوَّلُ فـــــــــــي الـــــــــــوطنِ العربـــــــــــيّ
لأقـــــــــــرأ شـــــــــــعري للجمهـــــــــــورْ
فأنـــــــــــا مقتنـــــــــــعٌ
أن الشـــــــــــعرَ رغيـــــــــــفٌ يُخْبَـــــــــــزُ للجمهـــــــــــور
وأنـــــــــــا مقتنـــــــــــعٌ – منـــــــــــذُ بـــــــــــدأتُ –
بـــــــــــأنَّ الأحـــــــــــرفَ أســـــــــــماكٌ
وبـــــــــــأنَّ المـــــــــــاءَ هـــــــــــوَ الجمهـــــــــــور
أتجـــــــــــوَّلُ فـــــــــــي الـــــــــــوطنِ العربـــــــــــيّ
ولـــــــــــيس معـــــــــــي إلاّ دفتـــــــــــرْ
يُرســـــــــــلني المخفـــــــــــرُ للمخفـــــــــــرْ

وأنا لا أحملُ في جيبي إلاّ عصفور(الدراويش،٢٠٠٩،١٥١)

فالشاعر في هذه القصيدة يكشف حقيقة التدنيس من خلال تبيان علاقة السلطة والجمهور، فهو (أي الشاعر) لم يفلت من القبضة الصارمة للأجهزة الأمنية فهي تخافه فترسل وراءه مخبريها لتقييد حريته، فما يمكن أن نعبر عنه يمثل الصفة المدنسة التي أعيا لها الشاعر (القباني) لتعد رؤية ذات تفصيلات عبرت عن المجتمع العربي في ظل الأزمات المفتعلة، وهذا ما أوضحه الشاعر عندما قال (لا أحمل في جيبي إلا عصفور)، فاستعمل

صفة الفردية (أنا) ثم ألحقها بعدم القدرة على حمل السلاح ، بعد ذلك أثبت القضية بـ(عصفور) بكونه يحمل انعطافة بائنة عن ذلك الألم المتمثل بسطوة السلطة القامعة لحقوق الشعب المضطهد ، فإن ذلك التدنيس أبان عن خطر أضفى له الشاعر بمحمولاته الخطابية دقة وصفية ترتسم منذ البداية كأنه يخوض في البحث عن شتى السبل ليعبر مناطق التابو بحثا عن متنفس يستطيع من خلاله أن يظهر تلك الصيحات والصرخات بقوله (أتجول في الـــــــــــــــوطن العربـــــــــــــــــــي ... لأقرأ شعري للجمهور)، فالوطن العربي هو الجمهور ذاته، ولكن أراد أن يؤكد القضية وعلى محمل اليقين التام بإقرار واضح لذلك الاستلاب وتلك التبعية التي استكن لها العرب، فالشاعر كان مبصراً عن جميع التنقلات الفكرية التي نجدها عندما قال (وليس معي إلا دفتر)، فهذا قد مثّل سجلاً وظف فيه رؤية تعبوية عن السطوة والاستكبار الممنهج الذي تحدثه السلطة تجاه الشعب العربي الخاضع ، وبمقابل ذلك انتقل بسرعة ليصور مدى خطورة الأمر الحاصل بذكر (المخفر)؛ لأن صوت الشاعر بدا واضحاً في توثيق وفضح ذلك القمع بمقابل الكبت المجتمعي الذي مثل تنازعاً حاداً أقامه القباني أمام المدنس المتمثل بالسلطة الحاكمة ، فهي سلطة يكشف الشاعر عن دنسها إذ يقول :

تحتـــــــــاجُ الكلمـــــــــــةُ فـــــــــــي وطنـــــــــــي
لجـــــــــــــــواز مـــــــــــــــــــرورْ
أبقـــــــــــــى ملحوشـــــــــــــاً ســـــــــــــاعاتٍ
منتظـــــــــــــراً فرمـــــــــــــانَ المـــــــــــــأمورْ
أتأمـــــــــــل فـــــــــــي أكيـــــــــــاس الرمـــــــــــلِ
ودمعـــــــــــي فـــــــــــي عينـــــــــــيَّ بحـــــــــــورْ
وأمـــــــــــامي كانـــــــــــتْ لافتـــــــــــةٌ
تتحـــــــــــدثُ عـــــــــــن (وطـــــــــــنٍ واحـــــــــــدْ)
تتحـــــــــــدثُ عـــــــــــن (شـــــــــــعبٍ واحـــــــــــدْ)
وأنـــــــــــا كـــــــــــالجُرذِ هنـــــــــــا قاعـــــــــــدْ
أتقيـــــــــــأُ أحزانـــــــــــي ..
وأدوس جميـــــــــــع شـــــــــــعاراتِ الطبشـــــــــــورْ
وأظـــــــــــلُّ علـــــــــــى بـــــــــــابِ بـــــــــــلادي
مرميّـــــــــــــــــــــــــــــــــــــاً..
كالقَدحِ المكسور (الدرويش،٢٠٠٩،١٥٢)

والشاعر نزار قباني في قصيدته يكشف الزيف الذي يتجلى في كلِّ هذه ، ويصف تلك العلاقة غير المتكافئة بأنها تسيء للإنسانية التي تصف الإنسان بأنّه أغلى رأسمال في العالم ولا سيما الغربي منه ، بينما يهان الإنسان في الشرق دون شفقة أو رحمة، فهو (أي المواطن) لم يكن سوى رقم من الأرقام وليس ذاتاً إنسانية له حقوقه في إبداء الرأي إزاء الحاكم المستبد، وهو بذلك يرسم صورة قاتمة للمواطن العربي تحكي قصة ذلك التدنيس في علاقة الحاكم والمحكوم .

إن رؤية الشاعر تجاه تدنيس الأنظمة الحاكمة (القامعة) لم تكن إلا صرخة ملهبة للشعب ليحدث الثورات لكي تنتزع الحقوق المسروقة بالسيف والدم، ولكن عندما نطالع قوله (تحتاج الكلمة ... لجواز مرور)، فهكذا لم يغفل الشاعر جميع المتداركات المصطلحية ليعطيها رموزا شديدة في التأثير ، فما كونته القصيدة التي سبقت إنما دلت على الخنوع التام، ولكن استمر موظفاً حالة الشعب العربي بتشتته ولم يكن إلا جسداً مستلباً تحت دائرة التبعية ، فالكلمة لم تكن مباحة وإنما هي تسير حسب قوانين قوى الاستكبار الحاكمة، وهكذا فالتدنيس لم يشمل الأنظمة الحاكمة وإنما ذهب ليشمل عدم توحد الصفوف بقوله (وطن واحد– شعب واحد) فهذا التفكك والتشتت هو من أضاع سبيل الانتصار وكذلك أضاع أيقونة التكاتف، فأصبح التدنيس يوافق (المجتمع – السلطة) ليحدث قصوراً واضحاً ارتمى تحته الإنسان العربي، ولكن الشاعر بعد ذلك لم يدع صفة التدنيس راكزة؛ إنما وضح الأسباب ليجد الحلول بقولهِ (أدوس جميع شعارات الطبشور) فهذه الشعارات والقوانين التي فرقت صفو المجتمعات العربية لم تكن تهدف إلى الوحدة، وبذلك أحدث الشاعر رؤية واضحة تجاه قلب العملية بوساطة ذلك الرفض وعدم الانهزام الذي مثل بالهجرة التي كانت سبباً في ضياع الأوطان العربية وتشتتها.

والشاعر له مفهوم خاص حول دور الشعر في الحياة إذ يقول :

لأنَّ ما نحسّه أكبر من أوراقنا

لا بُدّ أنْ نخجلَ من أشعارنا (الدراويش،٢٠٠٩،١٥٦)

إنّ هذا الإحساس بالغبن والظلم والحيف والقهر والاستغلال يجعلانه إنساناً محبطاً، خائفاً، يخاف سطوة الحاكم وجبروته وعنجهيته وغطرسته. ويستهجن الشاعر موقف التخاذل الذي جُبلت عليه الشعوب العربية فهي لا تحرر نفسها من الرعب والخوف من الحاكم فتركن للخضوع ؛ إذ يقول قادحاً بهم وتخاذلهم :

لا تلعنوا السماء

إذا تخلّت عنكُم

لا تلعنوا الظروفْ

فالله يؤتي النصر من يشاء

وليس حداداً لديكم ... يصنعُ السيوف(الدروايش،٢٠٠٩،١٥٧)

فعدم الصفو والوحدة هو من أوصل إلى ذلك، فما يمكن أن نقوله إن صوت الشاعر كان يمثل القوى الصارخة بوجه ذلك الصمت، فقوله (الله يؤتي النصر) جاء بها الشاعر ليمثل إرادة بائنة عن قوة الوحدة العربية في سبيل النصر المجزم، (فالنصر) حليف الشعوب المتوحدة وهو السبيل للوصول تجاه السمو والنصر، إذن قد مثلت هذه القصيدة إيماناً تاماً بوحدة الشعوب تجاه إرادة أصحابها ، فهي تسير منتصرة بقوتها و إيمانها التام الذي يحمل على أثره ذلك الاندفاع بما يمكنه من قلب المعادلة التي رسمها الطغاة.

والراجح في كلِّ ما عرضناه في التدنيس من خلال قصائده، وهذا غيضٌ من فيض مما يمكن أن نستنتجه عبر شدة معاناة الشاعر وتلك المعادلة غير العادلة في تقويمها ومن حيث الفعل والقول الذي يحتمي به الشاعر إزاء سلطات دول تحتمي بأنظمتها البوليسية في فرض دروس الطاعة والركوع والخنوع لقدرية الأحداث وما تخبئه من أفانين ودروس قاسية.

الخاتمة

ومن خلال رحلتنا مع الشاعر نزار قباني ، يمكن أن نذكر بعضاً مما يمكن أن يكون نهاية المطاف لتلك الرحلة ، وهي :

١- أنّ الشاعر نزار قباني يمكن أن نسميه (شاعر المرأة)؛ فهو في دفاعه عنها والاستعداد لكلّ ما يواجههُ من عقبات لم تقلّ عزيمته في الإصرار والثبات على مفاهيمه الشعرية التي جعلت من الشعراء الآخرين أن هاجموه بشراسة تعبّر عن حقدهم وغيرتهم منه إذ قرأ نتاجه الشعري الكثير من الفتيات والفتيان، وهذا كسب مشروع لتعضيد رأي الشعر واحترام متلقيه بكسبه رصيداً كبيراً من القرّاء.

٢- أن الشاعر نزار قباني شاعر متمكن من أدواته الشعرية ، فهو فريد عصره لم يتأثر بموجة عصره من التجارب الشعرية في الوطن العربي كالسياب وغيره من القامات الشعرية، إذ كان يغرد خارج السرب، فهو (أي: قبّاني) كان فريداً في رسم منهجه الشعري الخاص به.

٣- أنّ الشاعر اتّخذ من قضية المرأة والدفاع عنها في بلاد وحكومات تنظر للمرأة بعين الدونيّة ، وهو في موقفه يعبّر عن إيمانه بقضية المرأة وحقها في العيش بكرامة بعيداً عن اضطهاد الحكام .

٤- أن التقديس أخذ مساحة واسعة من نتاجه الشعري قياساً إلى التدنيس ، إذ كانت أكثر قصائده تميل للقداسة على الرغم من صوره الحسية التي حفلت بها دواوينه .

٥- أنّ الشاعر نزار قباني استعمل لغة سهلة ، مرنة ، غير معقدة ، وهكذا وصل صوت الشاعر إلى البيوت بكلِّ سهولة على الرغم من موقف المتزمتين ومحاربتهم له .

٦- لقد استعمل الشاعر صورا مخاتلة في سبيل تبيان الخضوع والخنوع الذي أحاط بالشعوب العربية وأبان عن سطوة حكامها ، وبالتالي أحدث معادلة بين (المجتمع _ الأنظمة) لينتصر لقداسة الصوت الملهب الكاسر لذلك المركز على حساب الهامش.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. المحمدي، مؤمن (د.ت)، الأعمال الكاملة للشاعر نزار قباني (شاعر الحب والثورة).

٢. حجازي، مصطفى (٢٠٠٦) الانسان المهدور (دراسة نفسية تحليلية اجتماعية) ط ٢ ، المغرب.

٣. كايو، روجيه (٢٠١٠)، الإنسان والمقدس. ط ١. ترجمة : سمير ريشا . مراجعة : جورج سلميل . بيروت.

٤. ويلسون، كولن.(٢٠١٨). الإنسان وقواه الخفية . ترجمة : محمد رزاق . نشر دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع .

٥. هادي، سحر. (٢٠١١).رشيد الإيقاع في شعر نزار قباني (دراسة جمالية) . ط ١ .دار المناهج للنشر والتوزيع.

٦. د. شحيمي، سمير.)٢٠٠٩).الإيقاع في شعر نزار قباني. ط ١. نشر عالم الكتب الحديث. اربد – الاردن .

٧. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد.(د. ت). تهذيب اللغة .تح : عبد العظيم محمود. الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة .

٨. تيلش، بول.(٢٠٠٧). الدين ما هو. ترجمة : سعيد الغانمي. ط ١ .منشورات الجمل.

٩. مانفريد، يان .(٢٠١١).علم السرد (مدخل إلى نظرية السرد). ط١. ترجمة : أماني أبو رحمة . نشر وتوزيع دار نينوى .

١٠. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد.(د.ت). العين. ط ٢.نشر دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع. بيروت – لبنان.

١١. البغدادي ،أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي.(١٩٦٤). غريب الحديث. ط١.تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان .مطبعة دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد – الدكن

١٢. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب.(د.ت).القاموس المحيط .ط ٢.إعداد وتقديم : محمد عبد الرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت – لبنان.

١٣. ابن منظور.(٢٠٠٣). لسان العرب تحقيق نخبة من الأساتذة .(د . ط). دار الحديث. القاهرة .

١٤. علوش، سعيد (١٩٨٥).معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة . ط ١ .نشر دار الكتاب اللبناني.

١٥. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا.(٢٠٠٨). معجم مقاييس اللغة . اعتنى به : الدكتور محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان. نشر دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت – لبنان.

١٦.طه عمر، فائز.(٢٠١٦). مقالات في النقد العربي القديم. بغداد ، ط ١ .(سلسلة نقد).دار الشؤون الثقافية العامة .

١٧.الزاهي، نور الدين.(٢٠٠١) المقدس والمجتمع. أفريقيا الشرق. د. ط.

١٨.معلوف، لويس.(١٤٢٣). المنجد في اللغة. ط ٣ . نشر دار انتشارات ذوي القربى. مطبعة الغدير . إيران .

١٩.هازلت، وليم .(د.ت). مهمة الناقد الأدبي .د.ط . ترجمة : نظمي خليل ، سلسلة (كتابات ثقافية).

٢٠.نجم ، خريستو(١٩٨٣) ، النرجسية في أدب نزار قباني (أطروحة دكتوراه) ط ١ ، دار الرائد للنشر.

٢١.د. ترشيح ،عصام (٢٠١٧). نزار قباني (بحث في علم الجمال النصي) .ط ١. دار عقل للنشر والتوزيع .

٢٢.الدراويش، عبد الفتاح (٢٠٠٩). نزار قباني (حياته وشعره) .ط ١.المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت .

Sources and references

The Holy Quran

1. Al-Mohammadi, Moamen (D.T), the complete works of the poet Nizar Qabbani (poet of love and revolution)
2. Hijazi, Mostafa (2006) The Wasted Human (A Social Analytical Psychological Study), 2nd edition, Morocco.
3. Caillou, Roger (2010), Man and the Sacred. 1st edition. Translated by: Samir Richa. Review: George Salmil. Beirut.
4. Wilson, Colin (2018). Man and his hidden powers. Translated by: Muhammad Razak. Publishing Dar Al Sharq for printing, publishing and distribution.
5. Hadi, Sahar. (2011). Rashid rhythm in the poetry of Nizar Qabbani (aesthetic study). 1st Edition. Curriculum House for Publishing and Distribution.
6. Dr. Shahimi, Samir. (2009). Rhythm in Nizar Qabbani's Poetry. I 1. Modern World of Books Publishing. Irbid - Jordan.
7. Al-Azhari, Abu Mansour Muhammad bin Ahmed. (Dr. T). Refining the Language. Edited by: Abdel-Azim Mahmoud. The Egyptian House for Authoring and Translation. Cairo .
8. Tilch, Paul (2007). Religion is what. Translated by: Saeed Al-Ghanimi. I 1. Al-Jamal Publications.
9. Manfred, Jan. (2011). Narrative Science (Introduction to Narrative Theory). I 1. Translated by: Amani Abu Rahma. Published and distributed by Nineveh House.
10. Al-Farahidi, by Abu Abd al-Rahman al-Khalil bin Ahmad. (Dr. T). Eye. I 2. Published by the Arab Heritage Revival House for Publishing and Distribution. Beirut, Lebanon.
11. Al-Baghdadi, Abu Obaid Al-Qasim bin Salam bin Abdullah Al-Harawi. (1964). weird talk. I 1. Investigation: Dr. Muhammad Abd al-Mu'id Khan. The Ottoman Encyclopedia Department Press. Hyderabad - Deccan
12. Al-Fayrouzabadi, Majd al-Din Muhammad ibn Yaqoub. (D.T). Al-Qamoos al-Muhit. 2nd Edition. Prepared and presented by: Muhammad Abd al-Rahman al-Maraashli. Arab Heritage Revival House for printing, publishing and distribution. Beirut, Lebanon.
13. Ibn Manzoor (2003). Lisan al-Arab, achieved by a group of professors. (Dr. i). Dar al-Hadith. Cairo .

14. Alloush, Saeed (1985). A Dictionary of Contemporary Literary Terms. I 1. Published by the Lebanese Book House.
15. Ibn Faris, Abi Al-Hussein Ahmed Bin Zakaria (2008). Language Standards Dictionary. He was taken care of by: Dr. Muhammad Awad Merheb and Miss Fatima Muhammad Aslan. Published by the Arab Heritage Revival House for printing, publishing and distribution. Beirut, Lebanon.
16. Taha Omar, Fayez (2016). Articles in ancient Arab criticism. Baghdad, 1st Edition. (Nuqd Series). General Cultural Affairs House.
17. Al-Zahi, Noureddine. (2001) The Sacred and Society. East Africa. Dr.. i.
18. Maalouf, Louis. (1423). Locket in the language. i 3 . Publishing house publications with kin. Al-Ghadeer Press. Iran.
19. Hazelt, William (D.T). The task of the literary critic. Translated by: Nazmi Khalil, series (Cultural Writings).
20. Najm, Kharbesto (1983), Narcissism in the Literature of Nizar Qabbani (PhD thesis), 1st Edition, Dar Al-Raed for Publishing.
21. Dr. Nomination, Essam (2017). Nizar Qabbani (Research in Textual Aesthetics). 1st Edition. Dar Akl for Publishing and Distribution.
22. Darawish, Abdel Fattah (2009). Nizar Qabbani (his life and poetry). 1 edition. National Library for Publishing and Distribution. Beirut .

الملحق

سيرة حياة الشاعر نزار قباني

- ولد الشاعر نزار قباني في دمشق / مارس ١٩٢٣ م .
- كتب ونظم الشعر وهو في سن السادسة عشر من عمره .
- دخل كلية الحقوق وتخرج منها سنة ١٩٤٥ م .
- نشر أول دواوينه الشعرية (قالت لي السمراء) .
- انضمّ إلى السلك الدبلوماسي وترك العمل فيه سنة ١٩٦٦ م .
- مرّت فجائع في حياته منها انتحار شقيقته ، أعقبها موت شقيقه توفيق ، أعقبها فقدانه لزوجته العراقية الثانية (بلقيس) سنة ١٩٨٢ م ، في انفجار السفارة العراقية في بيروت .
- ترك إرثاً شعرياً يقدر بـ (٤١) مؤلفاً شعراً ونثراً من الشعر الحر والعمودي .
- بعد تركه العمل الدبلوماسي أسس دار نشر باسمه (دار نزار قباني) .
- من دواوينه المهمة (هوامش على دفتر النكسة) بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ م .
- توفّيَ نزار قباني في ٣٠ أبريل ١٩٨٨ م .